«العودة إلى البدهيات» مفتاح الإصلاح التربوي

محمد أبو زيد

نفتتح اليوم هذا المؤتمر بوصفه حدثاً مهماً في مسيرة التعليم، وبوصفه تفاعلاً بين طاقات المجتمع الفلسطيني للنهوض بالعمل التعليمي ضمن شراكة مجتمعية فاعلة. سأبدأ من مقدمة الصديق وسيم الكردي مدير مركز القطان، فروعة مقدمة وسيم تتجلى في أمرين: أولاً، تقديمي أود أن أضعه على جهة، فلا أريد التحدث حول الذي حدث عندنا في الوزارة، فهذه رؤيته (أي وسيم)، ولا مجال للتشكيك فيها. والأمر الثاني، أن من يريد أن يتحدث بعد وسيم لا بد له من أن يستنفر رؤيته ويشحذ كل مصطلحاته، فما يكتب في مجلة رؤى تربوية التي أنتجها وينتجها مركز القطان، يثبت أن ليس من السهل أن تستطيع مماهاتها في بلاغتها وقدرتها على إيصال الرسالة، بهذا الشكل الذي سمعناه في هذا الشتاء الدافئ، وكلمات وسيم دافئة أيضاً.

ففي اللقاء بيني وبين باحثين من مركز القطان الذي تحدث عنه وسيم، استعرضنا الكثير من مسائل التربية، كل من زاوية عمله ورؤيته، وأريد أن ألخص ما قلته في ذلك اللقاء، واستذكر في هذا السياق ما طرح في أثناء إصلاح التربية في أمريكا، حيث طرح مشروع عنوانه «العودة إلى الأساسيات» (Back to Basics)، وأعتقد أننا إذا ما أردنا أن ننجز إصلاحاً جديداً وقوياً في وزارة التربية والتعليم، فإنه يجب أن يكون تحت عنوان «العودة إلى البدهيات» (Back to Common Sense).

إن قراءتي للمداخلات التي أسعفني بها وسيم في اللحظة الأخيرة خلال اليومين الماضيين، لكي أتمكن من قول كلمة ذات معنى أمامكم، ذكرتني في بدايات اشتباكي بالمعرفة والثقافة، في فترة ما، كان لي خال يشتري **مجلة العربي**، وكنت حريصاً على قراءتها باستمرار، وأهم ما تعلمته في تلك الفترة هو مصطلح «اعرف نفسك!»، وبعدها بنيت كثيراً على هذا الموضوع، فوجدت أن العديد من المجلات والدوريات قد تناولت وتداولت هذه الرؤية في تعبيرات ومفاهيم كثيرة، منهم: قل لي ماذا تقرأ أقول لك من أنت! قل لي ماذا تأكل أقول لك من أنت! قل كيف تنام أقول لك من أنت! قل كيف تلبس أقول لك من أنت! إلى أن وصلت بي الأمور إلى الجامعة الأردنية، وهناك درست الأدب الإنجليزي والأدب الإغريقي

والروماني، لأكتشف المصطلح الذي يتردد بكثرة هناك وبلغة إنجليزية العصور الوسطى (Middle English)، أصبح المفهوم بالنسبة لي «اعرف نفسك» (Know Myself)، فالشيء نفسه يقال في مناطق مختلفة وتعبيرات مختلفة. «اعرف نفسك!» (Know Myself)، أصبحت لا تعني فقط المأكل والملبس والمشرب، وإنما أن يفهم الإنسان ذاته وبيئته المحيطة، إلى درجة يمكن فيها القول فيها إن من لا يعرف نفسه يواجه بشيء من العقاب. وهذا الموضوع أيضاً يتم تناوله في العديد من الروايات المعاصرة، هناك حديث عن البطل الذي ترك القرية «الكبيرة» إلى المدينة، ولم يتمكن من التعايش هناك، ومن ثم دفع الثمن، ينتحر البطل لأنه غادر البيئة التي تناسبه، وانتقل إلى بيئة صعبة جداً لم يتمكن من معايشتها، فلم يتأقلم ولم يغير فمات.

وعندما اطّلعت على مداخلات المعلمين المشاركين، اكتشفت أنه إذا بدأنا بالمداخلة الأولى، مداخلة محمد الخواجا ويوسف الخواجا، وانتهينا بالمداخلات الأخيرة، فإن الشريط أو القاسم المشترك بين كل هذه المداخلات هو أن تفعيل المعنى وتعميقه هو نقطة أولى في كل هذه التجارب، فالتعليم في هذه التجارب انبنى على إنتاج المعنى داخل الحصة، من خلال تفعيل انخراط الطلاب في البيئة المحيطة، بمعنى نسج اشتباك العقول ما بين الدارس المتعلم من جهة، والبيئة المحيطة به من جهة أخرى.

هذا ما قاله لنا محمد ويوسف الخواجا في مداخلتيهما بخصوص المدية، وهذا ما قالته أيضاً روان النتشة وإسلام كبها. فالمداخلات كلها تشير إلى أن هنالك من الإبداع ما يكفي من أن ينتج تعليماً بعيداً عن الصورة التقليدية التي غالباً ما تتصف بها العملية التربوية. هي الصورة التي أذكّر فيها وسيم مرة أخرى في العدد الأخير من مجلة رؤى تربوية، التي قال فيها الأستاذ سعيد مضية واتّهم فيها التربية والتعليم بأنها ما زالت في عصر التلقي وعصر التلقين. وقد يجد هذا الكلام قبولاً منكم أيضاً، ولكن كنت أتمنى من أي كاتب أو باحث أن يذهب أبعد من العام 1984؛ أي زمن الكتاب الذي أصدره هشام شرابي، وأن يذهب إلى اللحظة الراهنة ليتمكن من رؤية الأمور على حقيقتها تماماً.

أنا لا أدعي أن الوزارة انتقلت فجأة أو بقدرة قادر من لحظة الهجوم عليها بالتلقين، والاستظهار، وإعادة إنتاج علاقات القمع والتسلط وغيرها من المصطلحات، ولكني أعتقد أن هناك في الوزارة مراجعة شاملة كاملة لكل هذه المصطلحات، وأعتقد أننا في طريقنا إلى إنتاج رؤية تربوية أخرى ومختلفة عن الرؤية الحالية التي تُنتقد.

أيضاً في الوزارة هناك توجه آخر تحت عنوان المشاركة؛ أي بناء شراكات مع من ينتج المعرفة فيما يتعلق بعملية التربية، وأنا أعتقد أن «القطان» ومراكز أخرى في فلسطين، قادرة على القيام بهذه المهمة، وهي تقوم فيها فعلاً، والدليل على ذلك الإنتاج الرائع الذي سيعرض علينا داخل هذه القاعة، والذي تم إنتاجه خارجها، ولكنه تم ضمن رؤية مختلفة هي رؤية مركز القطان للعمل مع المعلمين، ما سيقودنا إلى الاستنتاجات التي يمكن أن نبني عليها في المستقبل.

شكراً لـ«القطان» على دعوتها، وشكراً لكم جميعاً على مؤتمركم الذي أتمنى له التوفيق. وأود أن أقول لكم في نهاية كلمتي أن قدرتكم اليوم على إيصال المعنى وإيصال الرسالة من خلال هذه المداخلات يهمنا جداً في الوزارة. هنالك من اشتكى صباحاً من أحد مدراء التربية بأنه لم يمكنه من ترجمة ما يقوم به في «القطان» إلى ساحة المدرسة وإلى قاعة الحصة. أقول لكم إن حضوري اليوم وحضور الزملاء من وزارة التربية والتعليم وعلى رأسهم الأخ الزميل ثروت زيد «المدير العام للإشراف»، دلالة أكيدة على أن الوزارة هي بصدد مشاركة حقيقية مع «القطان» وغيرها من المؤسسات، على أسس واضحة وصريحة وفاعلة، فقد تكون الوزارة المؤسسة التربوية الأولى في فلسطين من ناحية تنظيم العملية التربوية في هذا المقاس، ولكننا لا نحتكر المعرفة المتعلقة بالعملية التربوية. وأعتقد أن الفارق الملهم الذي تحدث عنه وسيم هذا الصباح هو قبس ملهم لنا جميعاً؛ سواء أكنا في مؤسسة صغيرة أم مؤسسة كبيرة مثل وزارة التربية والتعليم. للمرة الثانية أشكر «القطان» على دعوتهم لنا، وأؤكد لكم أن المداخلات التي ستسمع اليوم سيكون لها نصيب كبير إن شاء لله من الترجمة الحقيقية في وزارة التربية، وستنال منا كل التقدير والدعم، وشكراً لكم جميعاً.

محمد أبو زيد
وكيل وزارة التربية والتعليم العالي